الزمن في "عتمة الذاكرة" لأثير النشمي

د ٠ منال بنت صالح المحيميد (*)

المقدمة:

للزمن ودلالته في العمل الأدبي قيمة كبرى في الدراسات الأكاديمية المعاصرة؛ وذلك لأهميتها في تفسير الأنساق اللغوية والخطاب، وتعود أهمية دراسة الزمن في رواية "عتمة الذاكرة" إلى أن الزمن فيها خاضع إلى النسق الذي هو الفكرة الجوهرية لهذا العمل الأدبي، فهو قائم على الذاكرة الزمنية، وعليه فإن أهمية الموضوع راجعة إلى سؤال: ما الزمن الأدبي في الرواية؟.

فالزمن عنصر أكيد في بناء الراوية وهو العمود الذي تتدلى منه الأحداث، وعليه فإنه يتعذر بناء الرواية دونه، فالزمن عنصر أساس في السرد، والرواية المختارة للدراسة بدءًا من عنوانها زمنية بامتياز، وهذا من أسباب انتخابها للدراسة.

كما يهدف البحث إلى اكتشاف الزمن الأدبي في العمل الروائي، فالزمن مقولة تدل على الوقت لا الزمن في صياغته التركيبية، وهنا نقف أمام اختلاف في معنى الزمن، أحدها يحيل إلى معنى الزمن النحوي أو الصرفي (اللغوي)، أما الآخر فيحيل إلى الزمن الفيزيائي، وَهذه الدراسة لا تهدف إلى الوقوف عليهما، بل ستنظر في الزمن الأدبي – تحديدا– الخطاب الروائي، وذلك بتأمل المتن الحكائي

(*) أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم اللغة العربية – كلية الآداب– جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن .

والمبنى الحكائي، وسيكون تركيز التحليل على الزمن التخيلي الخاص بالعالم التخيلي، الذي يطرح أسئلة من مثل: ما التقنيات الزمنية الأدبية في رواية عتمة الذاكرة؟ وكيف خدم الزمن الحجاح في هذا النص الأدبي؟

أما **المنهج** المتبع في التحليل فهو البنيوية، تحديدًا المنهج الإنشائي بشقه تحليل الزمن؛ وذلك لأنه الكاشف عن أدبية الزمن في الرواية. وما من بحث إلا لا بد أن يعرج على ذكر **الدراسات السابقة**، في حقيقة الأمر بحثتُ عن المراجع المشابهة للموضوع المدروس ووقفت على دراستين هما أقرب في طرحهما لما أتناوله ولكن ثمة اختلاف وتباين، وهما:

– حركة الزمن في المنجز الروائي لأثير النشمي، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، مج١٨، ع٤، ص١٤١–١٥٧، ٢٠١٥م، تغريد عبد الخالق هادي سبع. تناولت هذه الدراسة روايتي عتمة الذاكرة، "فلتغفري"، ولم تتناول رواية عتمة الذاكرة لأنها صدرت في السنة التي تلت سنة النشر للدراسة.

– الزمن في رواية "فلتغفري"؛ لأثير النشمي، ريحانة رزيقي، رسالة ماجستير، جامعة مرباح –كلية الآداب واللغات– الجزائر. تناولت الباحثة التحليل الزمني من رؤية المنهج البنوي مطبقا على رواية واحدة للأديبة هي فلتغفري، وهذا وجه الاختلاف مع هذه الدراسة التي تطبق الزمن في رواية "عتمة الذاكرة".

وتقوم الدراسة على مقدمة، وَقسمين: الأول يحلل الزمن الأدبي، بالنظر إلى المدة الزمنية، الترتيب، التواتر. أما القسم الثاني فعنوانه (الزمن خادما للحجاج)، يليه خاتمة البحث.

البداية:

"حكايات الأطفال لا تُنسى، حكايات الأطفال لا تُمحى"(١)، تختصر هذه العبارة فكرة الرواية كاملا، فهي اجترار لألم الماضي تحديدا عمر الطفولة التي كان لا بد أن يُغلف بحياة سعيدة مطمئنة لا شقاء يجرّ معه الويلات في مقتبل العمر!

إن الزمن في رواية "عتمة الذاكرة" هو الأساس الذي بُني النص عليه كاملا، إذ هو قائم على التذكر، وعليه فإني وقفت على منعطفات زمنية خدمت أمورا متعددة، منها: التقاطع الزمني داخل النص الذي أحدث حركة سردية فيه، الأمر الآخر: الزمن فضح كل مخبوء في نفسية السارد (كرهه لأمه وعلاقته المتأزمة معها ومع والده، ارتباطه بزوجته منتهى، نهاية العلاقة بها، علاقته بأخته نجلاء ونورة، وإخوته، وارتباطه مع زوجته الثانية عهود... إلخ)، إذ كشف استرجاعه للماضي كل ما مرّ به من أحداث ومؤثرات نفسيه دوّنها في الرواية.

بالإضافة إلى ما سبق، جاء الزمن خادما للحجاج؛ إذ لعب على محور في غاية الأهمية هو استغلال ماضي الطفولة المعنفة وإسقاط كل فشله عليها، ومرجع خيباته لتلك الأم القاسية، هذه البنية الكبرى التي سارت عليها الرواية بأكملها.

ويعدُّ الزمن من العناصر الضرورية ولا يمكن الاستغناء عنه في بناء هذه الرواية، فهو العماد الذي انبنت عليه كل الأحداث المتذكرة، كما أنه كشف عن الأبعاد التاريخية والاجتماعية والنفسية للذات الساردة، فالزمن من أهم العناصر التي يتكون السرد منها، فالسرد إذن فن "زمني بامتياز مقابل الفنون المكانية لا بالنظرة إلى كثرة الأزمنة المتواجدة فيها فقط، إنما لاعتمادها شبه الكلي على

(١) النشمي، أثير، رواية: عتمة الذاكرة، دار الساقي، ط١، ٢٠١٦، ص٥٢.

الزمن أيضا"[1]، أضف إلى ذلك أنه الأداة التي تساعد على فهم الشخصية الأدبية، ودوافعها، ومنطلقاتها.

وإن كنت سأتحدث عنه هنا فهو الزمن الداخلي الذي يتمثل في الفترة التاريخية التي يسير عليها الحدث، ومدة القصة، وترتيبها، ووضع الراوي بالنسبة لوقوع الحدث وتزامن الأحداث.

ورواية "عتمة الذاكرة" نص زمني بامتياز، أُعتمِدَ فيه على استرجاع الماضي بتفاصيله التي لا تكون إلا مأطرة بزمن الذكرى ابتداء من عنوان الرواية "عتمة الذاكرة"، وإن كان فيها بعض التقاطعات من الحاضر في النص، إلا أنها تمثل النزر اليسير.

أولا: المدة الزمنية:

أقصد بها معرفة سرعة النص بالنظر إلى العلاقة بين مدة الحكاية ومدة النص التي تقاس بالأسطر والصفحات، وهي علاقة زمنية ومكانية معا، والنظر من خلالها يكشف سرعة السرد وتبطئته، فمثلا التلخيص والحذف يساعدان على تسريع حركة السرد، والمشهد والوصف يعرفان بإبطاء حركة السرد[2].

١- تسريع السرد: (تقنية التلخيص) "وهي سرد أيام عديدة أو شهور أو سنوات من حياة شخصية، دون تفصيل للأفعال أو الأقوال، واختزالها في صفحات أو

(١) بوطيب، عبد العالي، قراءة في البنية الزمنية لرواية عام الفيل، مجلة البيان الكويتية، العدد ٣١٦، ١نوفمبر١٩٩٦م، ص٢٤.

(٢) انظر: جينيت، جيرار، خطاب الحكاية: بحث في المنهج، المشروع القومي للترجمة والنشر، ط٢، ١٩٩٨م، مصر. ص ١٠١-١٢٢ .

أسطر أو فقرات أو كلمات قليلة. وفيه يختصر الخطاب زمن الحدث في الحكاية؛ أي يكون الزمن في الحكاية طويلا لكن يُعبر عنه يصبح قصيرا"(١).

تقوم الرواية كاملة على تلخيص ذكرى "مشهور" الذي يسرد حياته، كشف النص عن عمره بأنه في السنة الخامسة من العقد الثلاثين أو يزيد(٢)، روى مجمل حياته في تلك السنوات بـ:(١٨٧) صفحة من الخطاب.

ويتفاوت ذكر الأحداث في الرواية، بعضها استغرق من حيز الخطاب صفحة واحدة مثل: "تعود بي الذاكرة إلى ذلك البيت القديم بتفاصيله الكثيرة التي لا تنتهي، وكأنها سلسلة من الخوف والإحباط والصرامة والقسوة اللامتناهية..."(٣)، وبعضها في فقرة، أو سطر من مثل: "لم نقدر أن ننفك عن سلسلة الصراع"(٤).

والحذف يقفز بالأحداث إلى الأمام ساكتا عن بعض وقائعها وفتراتها الزمنية، وقد أقام جينيت تصورًا بنيويا لتقنية الحذف الذي ينقسم عنده إلى مستويات ثلاثة(٥) هي:

١-الحذف المحدد أو الحذف الصريح المعلن:

من مثل: "لا أدري لما عشتُ لأيام على أمل أن تتصل هي بي، تمسكت بذلك الأمل رغم صعوبة احتماله، لكنها لم تفعل، لم تتصل، ولم تتنازل"(٦)، وحديثه عن

---

(١) المحيميد، منال، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد: دراسة إنشائية، رسالة ماجستير، مناقشة في جامعة الإمام محمد، ص ١٥٠.

(٢) رواية عتمة الذاكرة، ص ١٤٥. في النص الذى تحدث فيه عن وفاة والده.

(٣) م: ن، ص ٥٠. وانظر: ص ٦١، يروي موقف والده معهم في يوم العيد؛ إذ وضع شماغة على رؤوس أطفاله ليحميهم من لهيب الشمس الحارقة.

(٤) م:ن، ص ٦٣.

(٥) جينيت، جيرار، خطاب الحكاية: بحث في المنهج، ص ص ١١٧-١١٩.

(٦) رواية عتمة الذاكرة، ص ١٣٣.

وفاة والده ومراسم دفنه، حذف منها تفاصيل كثيرة، يقول: "نام قيلولته على فراشه المعتاد، في الوقت نفسه الذي ينام فيه معظم أيام حياته، لكنه لم يستيقظ من قيلولته ظهرا هذه المرة. لم يكن وقع موته عليّ حزينا بقدر ما كان مُبعثرا [...] كنت أشعر بأن هناك واجبات كثيرة تجاه هذا الموت، إعداد والدي له، والصلاة عليه، استقبال معزّيه، حصر الأرث، ودوامات ما بعد الفقد العائلية والاجتماعية"(١)، فالقارئ للأمثلة السابقة يتضح له أن الراوي كان متحكما بالمادة المسرودة، وهي تقنية ليست بالقليلة في الرواية.

أما الحذف غير المحدد الضمني، فهو أيضا كما سابقه، حضوره كثير في النص، أمثل عليه بالتالي: يقول "مشهور" (الراوي): "علاقتي بأبي باتت هادئة حينما كبرت وغدوت رجُلا"(٢)، أما الحذف الافتراضي فإنه يشترك مع الحذف الضمني في عدم وجود قرائن عليه، وهو أمر يفهمه القارئ بأن ثمة تجاوزات زمنية أغفلها الراوي، من مثل علاقاته بأخوته ومراسيم زواجه، وتفاصيل كثيرة أغفلها عن والديه، وركز فقط عن جانب الألم النفسي الذي حلّ به منذ الطفولة ولازمه حتى الكبر.

٢- تعطيل السرد:

هو عكس التقنية السابقة التي تعجل بدفة السرد، هذه التقنية تهدئ من حركته، وتتمثل في المشهد والوقفة الوصفية، ففي المشهد مثلا يتساوى زمن الخطاب وزمن الحكاية وتأخذ عادة لبوس الحوار، ويمكن التمثيل ببداية علاقة السارد بعهود التي أسماها على حبيبته وطليقته منتهى، دار بينهما حوار يقول: " اتصلت بعهود فتاة

(١) م: ن، ص ١٣٥.

(٢) م: ن، ص ١٣٦.

كُنت قد تعرفت إليها قبل فترة من خلال عملي في البنك [...] جاءني صوتها سعيدًا لاتصالي، قلت لها: إنني لن أناديها بعهود، وإن اسميها من الآن فصاعدًا سيكون "منتهى"! سألتني: ولماذا منتهى؟ ماذا يعني هذا الاسم؟ المنتهى هو نهاية الشيء، آخره، ألا تُريدين أن تكوني المنتهى؟ ما دمتَ تريديني أن أكون المنتهى فحتما سأكونه..."[١]، هذا الحوار كشف عن عمق حبه لمنتهى حتى إنه أطلق اسمها على عهود الزوجة الثانية التي تُكن له حبا خاصا وتسعى لرضاه وتحاول أن تتقرب له، فتزوجها لتشفي جرحا بداخله!

كذلك مشهد لقياه بطليقته "منتهى" في إحدى السهرات في فندق، كان زمن الحكاية مساويا لزمن الخطاب الذي امتد من صفحة (١١١ حتى ١٣٢) بمجمل صفحات (٣٣صفحة)، احتدمت الصفحات بحوار متصاعد بينهما، أوهمت هذه التقنية القارئ بتوقف الحركة السردية واقتصار المشهد عليهما معا، وتمحورت وظيفتها بتكوين صورة عن عواطف "مشهور" وندمه تجاه طليقته "منتهى"، كشف الحوار بينهما عن الأبعاد النفسية للراوي، والوضع الاجتماعي لكليهما، أضف إلى ذلك أنه أخذ بزمام النص وطور أحداثه بين المتحاورين، كذلك مشهد وفاة والداه[٢]، وتعنيف والدته[٣] له التي استمر يلوكها طوال الرواية، وقصته مع أخته نجلاء ونورة، وحكايته مع عهود، والمونولوج بأحاديثه الطويلة مع ذاته! كلها مشاهد كشفت عن ذات السارد، وهي قليلة الوجود في الرواية من ناحية الكم، وحيزها في النص يتراوح بين القصر والطول، وذلك راجع إلى سلطة الراوي في النص الذي تكفل في تسجيل المشاهد كما يراها.

---

(١) رواية عتمة الذاكرة، ص١٣٤. ومن أمثلة الحوار: ص ٣١.

(٢) رواية عتمة الذاكرة، ص ١٣٧.

(٣) م:ن، ص ١٦. على سبيل التمثيل لا الحصر.

٣- الوقفة الوصفية:

من التقنيات التي تتضافر مع المشهد في إبطاء حركة السرد فتقطع الأحداث مع استمرارية النص[١] هذا التوقف عن تنامي السرد يقابله عرض التفاصيل الجزئية المرتبطة بوصف الشخصيات أو الأماكن على مدى صفحات، والرواية مليئة بالوصف منذ افتتاحيتها حتى الخاتمة، فقد بدأها بقوله: "يدوي هذا الصوت في رأسي كقنبلة توشك على الانفجار، أحاول أن أفتح عيني الثقيلتين فلا أقدر، أحرك أصابع يدي فلا تستجيب، كُل ما أشعر به هو صوت "التيت تيت" وظلام دامس والكثير الكثير من الخوف والنسيان والفزع. لا أعرف أين أنا وكيف وقعتُ في هذا الظلام! لا أعرف إن كان هذا الموت أم أنا عالق تحت مبنى منهار أو سيارة منقلبة، كل ما أعرفه أنني أسمع لكنني لا أرى ولا أقدر على الحركة"[٢]، ويستمر الوصف حتى الصفحات الأخيرة متخذا أشكالا متعددة، وله وظائف مختلفة، فهذه الوقفة الوصفية الابتدائية كانت بمثابة العتبة التمهيدية التي أماطت اللثام عن الأحداث أمام القارئ، فسهلت عليه مهمة فهم النص القائم على الزمن خاصة التذكر! إن هذه الرواية أشبه ما تكون بالمذكرات التي يكتبها المرء عادة عما يختلج بفؤاده ويكون بضمير الغائب وزمن الماضي، لكنها بقلم آخر غير صاحبها، مما حدا بها من هذه الزاوية إلى كونها رواية فنية قائمة على الخيال والتخييل معا.

---

(١) انظر: قسومة، الصادق، النزعة الذهنية في رواية الشحّاذ لنجيب محفوظ،١٩٩٢م، دار الجنوب، (د:ط)، تونس ص ٥٧.

(٢) الرواية، ص ٩. وانظر: الوقفه الوصفية الطويلة بينه ومنتهى التي عبر فيها عن سعادته حينما أنعش السمكة، ص ص١٩-٢١. والوقفة الوصفية التي تحدث فيها عن تربيته هو ومنتهى لعصفورين ص ٢٤-٢٥.

ثانيا: الترتيب:

تقنية زمنية لا تتقيد بتتابع الأحداث خاصة في النقد البنيوي، الذي لا يلتزم السرد بتطابق ترتيب الأحداث كما هي واقعة في زمن الحكاية، ويقوم الكاتب بالاختيار والحذف من الأحداث الكثيرة والشخصيات في زمن الحكاية، بما يتناسب وزمن السرد القصصي وفق الضرورة الفنية.

وإن كان زمن الحكاية متعددًا ومتنوعا، فإن زمن الخطاب له بعد واحد يتمثل في الكتابة على أسطر النص، فينتج من ذلك مفارقة "الزمن السردية" إما ارتدادًا لأحداث الماضي، أو استباقا لأحداث لاحقة.

وتقوم الرواية على الارتداد، فـ"مشهور" عاد بذاكرته إلى الوراء البعيد حيث طفولته، والقريب بالحادث الذي أصيب به وطلاقه من زوجته "منتهى" وزواجه الثاني من "عهود"، إنه تطلع إلى الوراء بسرد التجارب التي عاشها في سالف الأيام، وثمة ارتداد داخل النص وهو غير كثير، فمثلا يعيد مشهد الحادث الذي ابتدأ به، يقول: "كلما استعصت الذكرى عليّ، تمسّكتُ بالمشهد الأخير المُفزع، شاحنة مهيبة، سائق مفزوع وفاقد للسيطرة، وزوجة يؤلمني قلبي حينما أسترجع اسمها الذي يصرّ على أن يقف في وجه النسيان"(١)، وفي مكان آخر يقول: "تيت..تيت! يعلو صوت التيت ولا يرد على صداه سوى الكثير من الألم وملامح بعيدة لشبه ذكرى"(٢)، هذا الارتداد داخل النص يفرضه أسلوب التذكر الذي ركز عليه الراوي.

---

(١) رواية عتمة الذاكرة ، ص ١٢.

(٢) م،ن ، ص١٣. كذلك أعاد الفكرة في ص ١٨، يقول: "فأعود إلى حالة العدم التي وقعت فيها منذ بداية ذلك الصوت الذي لم يتوقف منذ أن بدأ. مشهور! اسمي، واسمها مُنتهى، لا بأس في هذا كبداية".

وإن كان الراوي يستخدم أسلوب الغائب في سرده لماضيه، ويترك هذا الأسلوب أحيانا ويستبدله بضمير المتكلم، يقول: "لا أعرف كيف مضى على سقوطي في هذا الفراغ، لكنني أعرف أنني هنا منذ وقت ليس بقريب، ربما أحيا في هذا الظلام منذ زمن بعيد"(١). هذا الامتزاج بين ضمير المتكلم مع الغائب يعد من إستراتيجيات الرواية القائمة على صوت واحد، وذكرى واحدة، وهذا الارتداد له دور في غاية الأهمية يتضح لنا في السطور القادمة –في الحديث حول الزمن خادما للحجاج–.

ويعد الاستباق من الأساليب الملائمة في الحكايات المكسوة بضمير المتكلم(٢)، وقد بدأت الرواية بنوع من التلخيص الاستشرافي، حيث قدمها باللحظة المراد أن تكون هي النهاية من ناحية ترتيب الزمن الحكائي، فهو بدأ بحديثه عن الحادث، وانفصاله عن زوجته "منتهى" وعذاباته مع أمه، يلي ذلك بدأ السرد يراوح بين الاستباق والارتداد كما تسمح به ذاكرة "مشهور"، أقتبس ما ورد في بداية الرواية بقوله: "كنتُ أقرأ رسالة زوجتي الغاضبة التي قالت لي فيها إنها لن تشاركني يوما آخر في حياتها، وإنها تمقت اليوم الذي تزوجتني فيه [...] حينما رفعتُ عيني عن شاشة هاتفي ورسالة زوجتي الناقمة تلك، شعرتُ بشبح ضخم يقترب على يساري [...] أنمتُ أم متّ؟! لا أعرف [...] لكنني رحلت وحدي بعدما قرأت رسالة منتهى، تلك الرسالة التي قالت لي فيها لأول مرة وبعد ثمان سنوات من الزواج إنها تكرهني جدا"(٣)، جاء الشاهد السابق في بدايات الرواية، وهو استباق داخل النص، وارتداد خارجي، أحدث هذا التداخل حركة سردية تستدرج القارئ لفهم

(١) م،ن، ص ١٣.

(٢) جينيت، جيرار، خطاب الحكاية، ص٧٦.

(٣) الرواية، ص ١١.

الأحداث. وبالمقارنة فإن تقنية الاستباق في الرواية أقل من الارتداد، وهذه الاستباقات تدل على معرفة الراوي بتفاصيل الأحداث.

ثالثا: التواتر:

وبالنظر إلى جانب التواتر في الرواية، فإن التواتر المفرد لم يرد إلا قليلا فيه، وذلك طبيعة المادة القائمة على التذكر وانتخاب الأحداث التي تشترك في معاناة السارد، وظل يلوكها طوال النص، ومن الأمثلة: "نطلب الله دائما أن يهبنا الكثير من النسيان"(١)، وفي مكان آخر يقول: "تتراءى لي مشاهد كثيرة ما بين الظلام، مقاطع سينمائية متداخلة، لحظات فرح حقيقية ومشاهد حُزن كثيرة وقاسية"(٢)، "كنتُ أخرج من كابوس لأسقط في آخر، ولا ينقذني من هذه المشاهد المتقاطعة سوى مشاهد فرح قديمة"(٣).

ومن الأمثلة: "رأيتُ منذ ذلك السقوط ملامح ومواقف كثيرة، مررت فيها بمشاعر مختلفة جيّاشة صعبة قاسية"(٤).

رابعا: الزمن خادما للحجاج:

هل الزمن خدم الوظيفة الحجاجية في النص؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال، أطرح مجموعة من الأمثلة، وأحللها حتى نصل بعدها إلى نتيجة تكون هي الجواب على هذا السؤال.

وفي البدء أقول بأن: الحجاج من الأنظمة التواصلية التي تقوم على الوسيلة اللغوية وتقنياتها؛ بغية الإقناع، وهي مجموعة من الإستراتيجيات الخطابية التي يتوجه بها المُحاج إلى متلق ما، بغية إقناعة والتأثير فيه. وعليه استعملت الروائية

---

(١) الرواية، ص١١.

(٢) الرواية، ص١٤.

(٣) رواية عتمة الذاكرة، ص١٤.

(٤) م،ن، ص١٧.

حججا وضعتها على لسان الراوي "مشهور" بترتيب منطقي في عرض الحجج (الأساليب اللغوية) بشكل متسلسل ومترابط مما جعلها مقبولة لدى المتلقي، من بين تلك الأدوات وأشهرها "التكرار" بكل أشكاله، خاصة تكرار المعنى.

إن تكرار المعاناة الماضية عن طريق الارتداد الزمني الداخلي والخارجي للرواية، هي بذاتها حجة يقدمها السارد بأنه ضحية لـ (أم) متسلطة، وأب مهمل، أضف إلى ذلك الإسقاطات النفسية التي علق بها فشله في زواجه، هي أيضا من أنواع الحجج.

إن التشديد على عنصر الزمن الماضي في الرواية ليدل على رؤية الراوي الفكرية والاجتماعية والنفسية، لذا جاء حضور الخطاب بصيغة الماضي بشكل مكثف، وهذا ما أكسب القول في النص بالبعد الحجاجي، بما فيه من تركيزه على فكرة ذكرى الطفولة المؤلمة التي حشد فيها الطاقة اللغوية من الأفعال الماضية للتسليم بالمعطيات.

ويسوق الراوي تعليقات، كثيرا ما يفعل ذلك بعد أي حدث مؤلم مرّ به، فمثلا تعنيف والدته له بالضرب والشتم يقول: "لا أعرف لماذا انتهى هذا المشهد عند تلك الصفعات، ألم أعد أحتمل رؤية العرض كاملا أم أن رقابة الإنسان في ذاكرتي خشيت أن أعيش ذلك الوجع مرة أُخرى [...] تلك القسوة التي رأيتها في هيئة امرأة يستحيل أن تتجسد في جسد أمّ!"[1]، ويستطرد أيضا بقوله: "كيف يغيب أبي عن ذاكرتي، وكيف تحضر فيه زوجته؟ أين أمّي منّي؟ الأمّ التي لا بدّ من أن تستعمر الجزء الأكبر من تاريخي وذكراي ومن وجداني، ألا تسكننا أمّهاتنا؟

(١) رواية عتمة الذاكرة، ص١٦.

فكيف غابت أمي عني في ظرف كهذا الظرف، ظرف ما بين الموت واللاموت، ظرف "شبه الموت" هذا الذي يسيطر عليّ ويُطبق على حياتي"(١)، ومن الأمثلة: " لطالما تمنيتُ أن أكبر، كنتُ أتوق لأن أعيش ثلاثيناتي، افترضت أن خطوط حياتي ستكون فيها واضحة، كُل شيء في هذا العمر سيكون محددًا دقيقا ومخططا، لم أتخيل أن أصل إلى هذا العُمر وأنا ما زلتُ أصارع التيه وحدي. قاسٍ هذا التيه! قاسٍ بقدر ما هي قاسية عتمة الذاكرة"(٢)، ويحكي "مشهور" قصة تربيته هو ومنتهى لعصفورين مات أحدهما ولحقه الآخر، يعلق بقول: "وأنا أشعر الآن تماما كما شعر ذلك العصفور، لكنني لستُ شجاعا مثله لأختار الموت على الحياة، أنا لستُ جاهزًا بعد لتلك المواجهة، قلبي مُتضخم بالحزن، بالشوق، وربما بالكثير من الخذلان لدرجة أنني لم أعد استوعب الجديد منه، لكنني برغم كل هذا لا أريد الموت الآن، لا أريد أن أموت مهموما حزينا"(٣)، ويقول: "لم أعتقد أن الذكرى ستكون أقسى من النسيان إلى هذا الحد! ربما لأنها لم تكن متسلسلة، ولم تتدرج، هطلت عليّ بتسارع وبصور مُفاجئة وأحداث صعبة ومختلفة، جاءتني بتفاصيل تحتاج إلى مقدمات طويلة وتفسيرات مبررة"(٤)، ومن الأمثلة: "أعود إلى أمّي، الذكرى التي تحتل الجزء الأكبر من ذاكرتي، فتختلط مشاعري، وينقبض قلبي كما لو أن يدا قوية تقبض عليه بشدة وعمد"(٥). ويخبرنا عن أمه بقوله: "حينما كنت صغيرا كنت على يقين من أنها كانت تكرهنا"(٦)، "عرفتُ بعدما كبرت

(١) م،ن، ص١٧.

(٢) م،ن، ص ٢١.

(٣) رواية عتمة الذاكرة، ص ٢٥.

(٤) م:ن، ص ٢٢.

(٥) م:ن، ص ٢٦.

(٦) م:ن، ص٢٧.

وإخوتي وأخواتي أنّ أمنا كانت العقدة الكبيرة في طفولةِ كل منا! كانت لدى كل واحدة منا الكثير من التساؤلات حيالها، كانت لكل منا مخاوفه وشكوكه وأسئلته التي لم تساعده طفولته البريئة في الإجابة عنها"[١]، ومن الأمثلة: "تعلق أمي على والدي دائما كل خيباتها، تتذرع بكرهها له، وبعنفه عليها، تبرر قسوتها علينا في طفولتنا بسبب العنف الذي كان يمارسه أبي عليها"[٢]، ثم يسرد قصة رسوب أخيه ماجد وتعنيف والده له ولأمه التي زادت الكيل على الصبي جراء عقابها من زوجها، فراحت تسقط عليه الضربات والكلمات القاسية التي هزت قلوب صغارها آنذاك، ونقشت الألم في أفئدتهم حتى سطرها مشهور وباح عنها في هذا النص، ومن الأمثلة: "اليوم أعرف أن أمي لم تُعاقبنا لأننا أخطأنا، اليوم أعرف أنها عاقبتنا لتنتقم من أبي من خلالنا، هي التي لم تقدر تلك الليلة على أن تحمي نفسها منه"[٣]، "كل شيء كان قاسيا؛ لأنه كان من أمي، أمي التي كان من المفترض أن تكون صمام أماننا [...] من الغريب أن تكون أمي هي مصدر ذلك الخوف، من الغريب أن تكسر أمي بدواخلنا الثقة"[٤] ، "ربما لم يتنه فعليا ذلك الفزع، ربما تلك العوالق ما زالت باقية في حياتي، وأدرك جيدا أنها ما زالت موجودة في حياة إخوتي وأخواتي"[٥]، ويكمل البوح: " اليوم أنا لا أشعر بالخوف أمام الذكرى، اليوم أنا أكرهها كثيرًا، أحقد عليها، أشعر بالعجز أمامها، لكنني لم أعد أخافها قطعا لأنني لم أعد طفلا"[٦].

(١) م:ن، ص٢٨.
(٢) رواية عتمة الذاكرة، ص٣٠.
(٣) م:ن، ص٣٧.
(٤) م:ن، ص٣٨.
(٥) م:ن، ص ٤٠.
(٦) م:ن، ص٤١.

تلك أمثلة على تعددها، وطول بعضها، إلا أنّي رغبت بعرضها؛ لأن الحجاج فيها متداخل، استعملت الكاتبة على لسان الراوي الطاقة اللغوية لأجل تدعيم الحجة، فهو يقدم تبريرات حجاجية لغوية ومنطقية تبين سبب فشله وألمه في حياته وهو شاب، كان صوته هو المهيمن حجاجيا في الرواية، ويأتي بتبريرات إخوته أحيانا وهي قليلة في النص لكن لها أهميتها؛ إذ تدعم فكرته حول الطفولة المعنفة، حتى غدت الرواية طاقة حجاجية حول هذا الموضوع، انظر مثلا إلى قوله في المثال التالي: "تجرفني الذكرى بعيدا، إلى زمن قديم[...] أُشيح بوجهي عنه كيلا أعيشه مرة ثانية، فيقفز في وجهي مكشرًا أنيابه ومصرا على أن يُذكرني بنفسه! تمر في حياة كل إنسان منا أحداث ومواقف وأيام لا رغبة له في أن يتذكرها يوما، يتمنى لو استطاع أن يمحوها من ذاكرته وحياته وكأنها لم تحدث قط"(١).

وهكذا، فالرواية مشحونة باسقاطاتها على الماضي، وأن سبب ألم الحاضر هو امتداد للتغذية المعنفة أيام الطفولة من قبل أمه، هذا السرد الذي يرتكز على لغة الماضي والذكريات اتخذ منها حجة بنى النص عليها، فما كان سبب الحادث الذي تعرض له، وطلاقه ممن أحبها، والثقة التي لم تعرف مكانا لها فيه، كل ذلك مرجعه تلك الذكريات السلبية! يحاول أن يُنشئ مع المتلقي حالة تواصلية يقنعه فيها بهذه المعاناة، والحق إنها لعبة الكاتبة التي نسجت الخيال وجعلت "مشهور" (الرواي) يتلفظ به، إنه نص تواصلي تنهض قيمته بالجانب التأثيري، الذي تقوم به مقاصد الرواية، ومن هنا فإني لا أنظر هنا بالتحديد إلى بناء الرواية الجمالي، إنما نظرت إلى وظيفة هذا البناء في سياقها التواصلي من خلال التركيز على وظائف النص وآثاره الفعلية.

(١) رواية عتمة الذاكرة، ص ٤٩.

الخاتمة

رامت الدراسة النظر في الخطاب الروائي والوقوف على تقنيات الزمن الأدبي في بنية الخطاب التخييلي، فهذه الرواية قائمة على فعل التذكر واستدعاء الأحداث تعليلا للأحداث الآنية التي وقعت لبطل الرواية، فتراوح الزمن فيها بين التسريع والإبطاء والحذف والإضمار، والتواتر حتى إن له خاصيته في الترتيب، فكان من العناصر المساهمة في أدبية هذا الخطاب، بالإضافة إلى تحليل الزمن الحجاجي.

إن هذه الرواية برأينا لم تحقق هدف المتعة الذي تقوم عليه فقط، إنها رسالة تربوية هادفة بلبوس أدبي وظيفتها الرفق بالطفل؛ فهو وعاء تجارب التربية، يفيض بما امتلأ به إذا كبر، ويبدو أيضا أن لها وظيفة تطهيرية كما هي عند "أرسطو" في مسرحياته؛ فالقارئ يتطهر من ذكرى سيئة، فهذه الرواية تلامس روحه وتخرج ما به من أكدار الحزن وتواسيه، إلى جانب الوظيفة الفنية والشعرية بطبيعة الحال. وكل الأمثلة السابقة تعدُّ شاهدا قصصيا لما حدث لمشهور، وحجة سردية اعتمدت على حكايته مع عتمة ذاكرته، وهكذا يكون النص اعتمد الخطاب السردي؛ لتوصيل رسالته وإحداث أثره في المتلقي، ومن هنا فقد برز المقصد الأخلاقي والتربوي الذي رامته الكاتبة.

وإذا كان زمن الارتداد للماضي يشكل حكاية الرواية، فإن الخطاب جعل من هذا الزمن نصا سرديا يفسر ذلك الألم القديم في الحكاية؛ أي أنه فصّل ما جرى له بالصور المكثفة عن حياته القديمة، هذا الارتداد بالزمن من الصيغ الحسية التي رامها الراوي لتوصيل المضمون، وهذا اللعبة الحسية لها دورها الفاعل في نفسية المتلقي، فالحجاج هنا اتخذ من الزمن أداة يستعطف فيها المتلقين، كما أنه غلف هذا الزمن بحجج أخرى تتمثل في أفعال والدته ووالده أيام طفولته، فتكثف

الحجاج بأشكاله اللغوية، والشواهد القصصية، لم تخرج عن إطار زمني قديم؛ إنها مقاربة حجاجية – وحسبي بذلك الاجتهاد–.

أضف إلى ذلك أن ظاهرة التكرار في النص وإن كانت قد خدمت الفكرة من الناحية الحجاجية حدّ الإشباع، إلا أنها أحدثت نوعا من الإملال باجترار الحدث نفسه، أضف إلى ذلك وتيرة السرد التي جاءت هادئة لا تصدم القارئ أو تحدث له أفق انتظار يشده إلى النص، رغم امتلائه باللغة الشعرية لكن السرد هادئ.

ومن الملحوظات تداخل العامية بالفصحى. قد تكون تلك بعض الأسباب التي تنقص من العمل، لكنه في العموم عمل جيد، وبشارة على أدب شباب ناضج في الكتابة الروائية. ومن هنا أوصي بدراسة أدب الشباب والتفتيش عن مكامن القوة فيه والضعف؛ لننهض بأدب مشرف يليق بأدب العربية.

**

قائمة المصادر وَالمراجع

- النشمي، أثير، رواية: عتمة الذاكرة، دار الساقي، ط١، ٢٠٠٦م.
- جينيت، جيرار، خطاب الحكاية: بحث في المنهج، المشروع القومي للترجمة والنشر، ط٢، ١٩٩٨م، مصر.
- قسومة، الصادق، النزعة الذهنية في رواية الشحّاذ لنجيب محفوظ، دار الجنوب، (د:ط)، ١٩٩٢م، تونس.

الرسائل العلمية والمجلات:

- بوطيب، عبد العالي، قراءة في البنية الزمنية لرواية عام الفيل، مجلة البيان الكويتية، العدد ٣١٦، ١نوفمبر١٩٩٦م.
- المحيميد، منال، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد: دراسة إنشائية، رسالة ماجستير.

* * *